الفصل الرابع

السنوات الصعبة

إن التغيير الهائل الذى أحدثه الإسلام فى خريطة العالم المحيط به ، وفى عقائده ونظمه ونفسيته لم يكن ليمرّ دون أن يعكس آثاره بصورة أو بأخرى على الإسلام نفسه ، ممثَّلاً فى دولته وفى مجتمعه . وممثلا بصفة خاصة فى القادة والروّاد الذين حملوا أكثر من سواهم أعباء هـذا التغيير العظيم .

ولقد كان اغتيال الخليفة الراشد العظيم أمير المؤمنين « عمر ابن الخطاب » أولَ ظَواهر هذا الانعكاس الخطير .

كان نذيراً واضحاً بأن ردود الفعل لتلك الفتوحات الإسلامية الطامية ، قد بدأت تنفذ قانونها وتفرض سلطانها .

لقد مزّقت الفتوحات العريضة يومئذ مُلك فارس والروم . وبقيت نقمة الفلول المتبقية من السلطات المنهـارة ناراً تشحذ ضرامها تحت الرماد .

وجاء الفتح بمشاكل الثراء الطارئ والدنيا الحافلة بالإغراء ،

والاختلاط الماثل بين أجناس وأمم وتقاليد .

كان لا بد لهذا كله أن يعكس على الفاتحين ظلاله . .

ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يستشِفّ من وراء الحجُب تلك الانعكاسات المنذِرة .

يقول أسامة بن زيد رضى الله عنهما :

« أشرفَ النبي صلى الله عليه وسلم على
أُطُم – أى مُرتَفع – من آطام المدينة
وقال : هل ترون ما أرى . . ؟
قال أصحابه الذين كانوا معه : لا . .
قال : فإنى لأرى مواقِع الفتن خلال
بيوتكم كمواقع القطر » . .

ويقول عبد الله بن عمر . . رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إذا مشت أمتى المطَيْطاء – أى الخيلاء –
وخدمتها أبناء الملوك ، فارس والروم ،
سُلط شرارها على خيارها » . .

وهو بهذا ، يشير إلى ردود الفعل المحتومة لفتحهم الواسع العظيم ، ويهيئ نفوسهم لتأخذ حِذْرها ، ولتكون مستعدة لمواجهة الأحداث المقبلة بما سلّحها الإسلام من فضائل وثبات .

* * *

والحق أن الفتن التى تعرض لها الإسلام والمسلمون فى عهد الخليفة

« عثمان » والتى فرضتها حركة التاريخ عليه فرضاً ، دون أن تكون له يد فى إزجائها ، ما كان فى وُسع أحد أن يدفعها .

صحيح أنه ربما كان من الممكن تخفيف ضراوتها ، أو تأجيل هُبوبهـا . أما دَحْضُها بصورة شاملة فما نحسب ذلك كان فى مستطاع أحد . .

لقد كانت تلك الأحداث على جسامتها جزءاً من حركة الزمن الإنسانى والتطور التاريخى . وكانت مظهراً لِسنّة تاريخية فرضت نفسها على كل الحركات الكبرى عبّر تاريخ الإنسان .

ولقد أرادت مقادير « عثمان » له ، أن يَصطلى بمسئوليتها مرتين . .

الأولى : عندما اختارته المقادير ليكون الخليفة الذى يشهد عهدُه وأيامه ، مقدم الفتن وإنجاز المؤامرات .

والثانية : عندما حُمِّل أوزار تلك الأحداث التاريخية واعتُبر مسئولا عنها ! !

ومن الظلم للخليفة ، وللحقيقة أيضاً ، أن نرى فى الخلاف الذى قام بينه وبين نفر من أصحابه ومن المسلمين الوافدين من بعض الأقطار جوهر الفتنة ، وشكلها الوحيد .

فما كان هذا الخلاف ، وما كانت الأخطاء التى أُخذت على الخليفة يومذاك سبب الفتنة الضارية ، بل كانا — الخلاف والأخطاء — واحدة من نتائج كثيرة لمؤامرات بعيدة الغوْر ، أحكمتْ تدبيرها قوى أجنبية ، مستعينة بعناصر عميلة دخلت الإسلام خِلْسَة ؛ لتكيد له وتخرِّب فيه . .

ولو أن الأخطاء التى عُزيت إلى الخليفة «عثمان» كانت سبب الفتن الهُوج التى تعرض لها الإسلام ؛ فما الأخطاء . . إذن – التى كانت سبباً فى اغتيال أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» . . ؟ ؟

لقد كان مقتل «عمر» كما قلنا الرصاصة الأولى التى أطلقتها فى المعركة الخفيَّة ، قُوَى الشر المتحالفة ضد الإسلام .

وما عرف الناس لأمير المؤمنين «عمر» خطأً واحداً ، فضلا عن أخطاء تبرر اغتياله الأثيم ! !

ولسنا قادرين – مهما نتسامح – على أن نعتبر جريمة اغتياله جريمة فردية .

وحتى لو كانت كذلك ؛ فإن امتدادها لم يكن عملا فرديًّا ، بل صار عملا جَماعيًّا شاركَتْ فيه جميع القُوى التى خضَد الإسلام شوكتها .

فاليهود الذين أُجْلوا عن المدينة ، وشتَّتهم غدرهم فى البلاد .

والامبراطورية الرومانية التى فرط الإسلام عقدها ، وكنس نفوذها بعيداً عن البلاد التى كانت تحتلّها وتستعمرها ، ودفعها داخل حدودها الضيقة . .

والامبراطورية الفارسية التى صنع بها مثلما صنع بالروم ، والتى خسرت كل مصالحها وكُنوزها وأساطين قادتها العسكريين .

كل هؤلاء . لم تجفّ دماء أحقادهم على الإسلام وعلى دولته الناهضة فى شموخ عظيم . ولم يهدأ نَعيب الثأر فى أنفسهم إلا ريثما تواتيه الفرصة . فى يوم ، راحوا يُعِدُّون له ، ويتهيَّأون .

ولقد جاءتهم الفرصة فى مقتل « عمر » أمير المؤمنين .

من أجل ذلك رأينا التمرد المسلح يجتاح كثيراً من البلاد التى كانت الامبراطوريتان قد خسرتاها فى حروبها السابقة مع الإسلام .

ولم يكن تمرداً داخلياً من أهل تلك البلاد الذين كانوا – كما أسلَفْنا من قبل – قد فرحوا بمقدم الإسلام إليهم فرحاً عظيماً ، حتى الذين لم يعتنقوه منهم . . إنما كان تحريضاً من الروم والفرس لبعض العناصر التى أفقدها الإسلام نفوذها وسلطانها ، كما كان فى حالات أخرى هجوماً مباشراً من جيوش الروم والفرس على تلك البلاد .

وكما تحرَّك هؤلاء من الخارج ، فقد تحرَّك اليهود من الداخل . . ولم يكن عبثاً ولا صُدْفة أن يَفِد من اليمن إلى المدينة فى عهد « عثمان » يهودى يقول : إنه درس الإسلام وأحبه ويريد أن يعلن إسلامه ويأخذ مكانه فى صفوف المؤمنين ، ثم يلعب هذا اليهودى تحت قناع إسلامه ، أخطر وأفدح دور فى تمزيق وحدة المسلمين وتجهيز الفتنة المسلحة التى أوْدت بحياة الخليفة الشهيد – ذلكم الرجل هو : عبد الله بن سبأ ، الذى سنشهد طرفاً من نشاطه المخرِّب عما قريب .

لم تكن – إذن – المآخذ التى جُوبِه بها الخليفة والتى سنناقشها فيما بعد ، سبب الفتنة ولا قِوامها – إنما هى المؤامرة العابثة ضد الإسلام كانت تنسج خيوطها من بعيد ، حتى إذا وَاتَتْها الفرصة وساعدها الزمن ، قفزت فوق مسرح الأحداث لتلعب دورها جهرة وعلانية .

ولكى تكتمل جوانب الصورة الصحيحة للقضية ، علينا أن نعود بالحديث إلى عهد قديم .

هناك صورة غامضة وغير واعية تغشى إدراك كثيرين منا حينما نفكر أو حينما نتصور الجزيرة العربية فى ماضيها السحيق ، فنحسبها مجرد مَتاهة عريضة فى الصحراء ، يسكنها ناس معزولون عن عالمهم لا يهتمون بأحد ، ولا يهتمّ بهم أحد . .

ونتصورها — عند ما جاءها الإسلام — مجرد قبائل مُتنائية ، وقُرى متباعدة ، جاثية فوق الرمال ، تتوسطها أُم القُرى « مكة » التى تغدو قوافل تجارتها وتروح ، بينها وبين الشام ، ثم هى بعد هذا لا تهتمّ بأحد ، ولا يهتمّ بها أحد . . ! !

وهذه الصورة فضلا عن مجافاتها للصواب ، فإنها تعزل إدراكنا وفهمنا عن المقدمات الهامة التى لا نستطيع بدونها تفسير الأحداث الهائلة التى شهدتها شبه جزيرة العرب قبل الإسلام ومع الإسلام .

ولكى ندرك الصورة الصحيحة ، لن نحتاج إلى الإيغال فى الزمن البعيـد ، حيث قامت فى جنوب الجزيرة حضـارات المعينيّين ، والحضرمَوتيّين ، والسبئيين ، الذين جعلوا بلادهم جِناناً عن يمين وشمال .

وحيث قامت فى شمال الجزيرة مدينة « البتْراء » تسيطر على طريق القوافل بين الشمال والجنوب ، وتتشامخ حصونها المنيعة ، حتى تدحر على أبوابها عام ٣١٢ قبل الميلاد جيش « أنتيجونوس » أحد خلفاء الإسكندر الأكبر ، وتزدهر فيها حضارة عربية رائعة وباهرة .

وحيث قامت « تَدْمُر » التى أنشأتها فى بلاد الشام بضع قبائل عربية ، خرجت من جزيرة العرب فنهضت بحضارة سامقة وشادت

قوةً عسكرية جبارة مكنتها من أن تنزل بالفرس هزيمة منكرة ، وتستولى منهم على سورية ، وبلاد ما بين النهرين عام مائتين وستين بعد الميلاد . مما جعل إمبراطور الروم آنئذ يتخذ من « أذينة » حاكم « تدمُر » نائباً له فى سوريا ومصر وأرمينية . . ! !

وحيث خرج من اليمن فى جنوب الجزيرة العربية نفر من القحطانيين، فأسسوا مملكة « اللَّخميين » فى العراق . .

كما خرج منهم نفرٌ آخرون أسسوا مملكة « الغَساسنة » فى سوريا .

أقول : لن نحتاج إلى الايغال وراء ذلك التاريخ الذى يكشف عما كان لشبه الجزيرة العربية من حياة وأهمية وخطر ، وما كان لها وللقبائل النازحة منها صوب العراق وسوريا من علاقات متكافئة فى أحايين كثيرة مع الامبراطوريتين الكبيرتين – فارس ، والروم . .

وسيكون حسبنا إلقاء نظرة سريعة على شبه الجزيرة العربية وعلى مكانتها وعلاقاتها منذ بزوْغ الإسلام ، أو قبل ذلك بقليل .

فقبيل الإسلام كانت الجزيرة العربية موضع اهتمام القريبين إليها والبعيدين منها ، على الرغم من عدم وجود أى سلطان سياسى لها يومذاك .

وعلى الرغم من أن مطامع الغزاة كانت تولى وجهها دائماً شطر الجنوب حيث بلاد اليمن باستراتيجيتها وخيراتها ، إلا أن الشمال كان لا يغيب عن اهتمامهم كذلك ، فهناك مكة بثرواتها وازدهارها . . وفى مكة « الكعبة » التى تهوى إليها أفئدة العرب من كل مكان ، وتهيئ « لـ » مكة نفوذاً رُوحياً لا يُقاوم . .

من أجل ذلك نرى « أبرهة » نائب امبراطور الحبشة يومئذ يقود جيشاً لجباً لغزو مكة وهـــدم الكعبة ، وذلك بعـد أن عجزت كنيسته التي بناها فى صنعاء عن اجتذاب العرب إليهـا كما كان أبرهة يظن ويتوهم .

وكانت « مكة » كطريق للقوافـل ، وبتجارتها الواسعة مع الشام يعيش أهلها فى اهتمام متبادل مع العالم الخارجى .

ونَمَت هذه الاهتمامات المتبادَلة مع ظهور الإسلام ، فنرى النبي عليـــه السلام يختـار الحبشة دار هجرة لأصحـابه الذين اضطهدتهم قريش .

كما نراه – عليه الصلاة والسلام – يكتب كُتبه ، ويُرسل مبعوثيه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام .

فبعث إلى قيصر الروم ، وامبراطور الفرس ، ونجاشى الحبشة ، وعزيز مصر ، وإلى رؤساء عُمان ، والبحرين ، واليمامَة والشام .

وحين أوقع الفرس بالرومان هزيمة منكرة ، واستولَوْا على مستعمراتهم فى آسيا ، كما دخلوا مصر ، وقرعوا أبواب القسطنطينية ، تغشَّى المسلمين فى المدينة هَمٌّ عظيم ، فقد كانوا حسبما علمهم دينهم يتعاطفون مع أهل الكتاب ، وكان الرومان نصارَى ، فأحزن المسلمين أن ينتصر عليهم عُبَّاد النار من الفرس ، ونزل الوحى يطمئنهم ويحمل لهم عَزاء وبُشرى فى سورة سميت باسم « سورة الروم » . .

« آلم . . غُلِبَت الرُّومُ فِى أدْنَى الأرْضِ
وهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِى بِضْعِ

سِنِينَ . لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ .
وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ ، يَنْصُرُ
مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعْدَ اللهِ ،
لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لا يَعْلَمُونَ » .

إلى هذا المدى كان اهتمام المسلمين بالعالم الخارجي وتلاحُمُهم مع مشاكله وتطوُّراته .

ولقد صدقت آيات الله وتحقق وعده ، فلم تمض سوى سنوات قليلة حتى أنزلت جيوش الروم بجيوش الفرس هزيمة منكرة ، واستردّت الامبراطورية الرومانية من « فارس » ما كانت قد استولت عليه فى حربها السالفة .

بيد أن قيصر الروم لم يلبث وقد أسكره انتصاره على الفرس أن تنمَّر للمسلمين ، وخشِيَ على مُلكه من قوتهم المتعاظمة ، فجمع صفوف جيشه فى الشام ، وقرر الهجوم على الجزيرة العربية .

وهنا نلحظ المزيد من اهتمام الرسول والمسلمين بالعالَم الخارجي ، ونشهد سلامة تقديره عليه السلام لكل موقف يُزجيه ذلك الاهتمام .

وهكذا رأيناه يرفض التسامح تِجاه هذا التهديد الموجَّه لأمته وبلاده ، فيخرج فى أيام بالغة القيظ والعسرة ليلاقى الروم بكتائب الإسلام — هناك عند حدود الشام فى غزوة « تَبوك » التى لم ينشب فيها القتال ؛ إذ آثر قيصر الروم السلامة ، ورجع من حيث جاء .

كما نراه عليه السلام يوصى فى مرض موته قائلا :

« أنفِذُوا بَعْثَ أُسامة »

وكان « أسامة » قد وضعه الرسول على رأس جيش وُكلت إليه مهمة زجر أولئك المتربصين بحدود البلاد .

* * *

لم تكن الجزيرةِ العربية إذن تعيش فى تِيهٍ ولا فى خَواء . . لا قبلَ الإسلام ولا بعد بزوغه ، بل كانت دائماً فى بؤرة اهتمام العالم الخارجى ، كما كان العالم الخارجى فى مركز اهتمامها .

حتى إذا جاء عهد « عمر » وزحفت جيوش الإسلام حاملة رايات الحق والبذل والهدى والخير ، وتهاوت تحت سنابك خيلها امبراطوريتا الروم والفرس ، كانت الجزيرة العربية التى أصبحت « الوطن الأم » للإسلام قد فرضت اسمها والاهتمام بها على كل فم ، وعلى كل سَمْع ، وعلى كل فؤاد . . . !

صار المسلمون يومئذ ، الزاحفون من مدينة الرسول إلى عالم الشرك والضلال فى كل مكان ، حديثَ العالم الخارجى بأسره . وموضوع اهتمامه الوحيد .

وعلى الرغم من أن القوة العسكرية والسياسية للروم كانت قد تحطمت أمام جيوش الإسلام ، إلا أن سعير الثأر لم يخمد ولم ينم فى صدور الذين ظلُّوا أحياء ، ممن كان لهم فى ديارهم وبلادهم نفوذ وسلطان .

فنى « فارس » كما فى « الروم » كان الكهنة ، والقناصلة ، وأشراف البلاط ، والإقطاعيون مالكو الأرض ، ومحتكرو التجارة

والثروات . . كان هؤلاء جميعاً يحملون للعرب والمسلمين حقداً يضاهي ما فقدوه من كنوز ، ونفوذ ، وسلطان .

وكان هناك في الجانب الآخر ، يهود بني قَيْنُقاع وبنو النَّضير الذين نُفُوا إلى الشام ، فاتخذوا منها حتى بعد الفتح الإسلامي مركزاً لصنع الفتنة وتصديرها إلى كل مكان تناله أيديهم ومكائدهم .

كانت مؤامرات هؤلاء وأولئك ضد الإسـلام تتجمع كالسيل الطـامي . .

وكان « عمر » بكل يقظته ، والدولة المسلمة بكل عنفوانها ، يقفان سَدًّا منيعاً ، ورادعاً .

فلما مالَتْ شمسُ « عمر » للمغيب ، وجدت المؤامرات الضارية المسعورة لنفسها منفذاً عريضاً ، فكانت الحروب المسلحة التي واجهت المسلمين في بقاع كثيرة أوّلَ خلافة « عثمان » ، والتي تحدثنا عنهـا من قريب .

حتى إذا أحسنَتْ جيوش الإسلام تأديب المتآمرين وحطمت جيوشهم على غزارتها وخيّبت إلى الأبد آمالهم في تَسَوُّر حدود الدولة المسلمة الشامخة ، ألقَوْا سلاحهم صاغرين مدحورين . . بيد أنهم لم يُلْقُوا ما في صدورهم من ضغن مسموم . بل ازدادت أضغانهم سُعاراً ولَهَباً . وقرروا أمام إخفاق حملاتهم العسكرية ، أن يلجأوا إلى أسلوب آخر ، هو الائتمار بالدولة من الداخل . والتسلُّل بالفتنة إلى الصفوف الأولى بين قادة المسلمين من كبار أصحاب الرسول ، ثم بين صفوف الجماهير في أقاليم الدولة البعيدة والقريبة . .

ولقد كان ذلك العبء المُبهظ الثقيل مُدَّخراً للرجل الذى سيتلو «عمر» فى الخلافة :

وكان هذا الرجل «عثمان» رضى الله عنه وأرضاه .. دفعته مقاديره ليحمل فوق كاهله مسئولية هذه «السنوات الصعبة» فى تاريخ الإسلام كله .

وإنا لنعترف بأن فى وصف تلك السنوات بالصعوبة وحسب ، تبسيطاً كبيراً لخطرها .. فالحق أنها كانت أكثر من «صَعْبة» بل أكثر من «رهيبة» ...

* * *

تنطوى البلاد المفتوحة دائماً على مشاكل تُؤرِّق الفاتحين .

وعلى الرغم من أن الإسلام كان ينشر رحمته وعدله على تلك البلاد فَوْرَ فَتْحها .. وعلى الرغم من أن فتحه لها كان تحريرًا لشعوبها من طغيان مستعمرين عُتاة ، فُرساً كانوا أو روماناً .. إلا أن ذلك لم يقض على مشاكل الفتح كلها ، وإن كان قد قضى على الكثير منها .

بيد أن البقية الباقية من المشكلات أخذت تنمو وتتضخم مع مرور الأيام وتقادم العهد .

• فمثلا ، بعد أن كانت شعوب البلاد المفتوحة تَشرُف وتسعد بأن يكون وُلاتُها من أصحاب رسول الله ، الذين يختارهم أمير المؤمنين فى المدينة ، ويوفدهم لحمل مسئولية الولاية ، أخذ بعض هذه الأقاليم ، يتساءل أهله أو بعض أهله : لماذا لا يكون وُلاتُنا منا أنفسِنا .. ؟ ولماذا مِن قريش أو من المدينة .. ؟ !

وكان لبعض هؤلاء مناورات كاد يضجّ منها « عمر » نفسه برغم حزمه وصرامته . وحسبنا واحدة منها تبعث الأسَى بقدر ما تُفجِّر الضحك . . يوم سأل أهل الكوفة أمير المؤمنين « عمر » أن يعزل عنهم واليهم الذى كان من خيار الصحابة وأجِلاَّئهم ، مُبَرِّرين طلبهم هذا بقولهم : [إنه لا يُحسِنُ يُصَلّى] ! ! !

* وبعد أن كان أهل تلك الأقاليم فى بَهَرٍ عظيم بما أفاءه الإسلام عليهم من عدالة وفضل ، حتى رأوا دولته المنتصرة تترك لكل زارع أرضه ، ولكل تاجر متجره ، بل لقد حرَّمت على رجالها أن يأخذوا من ذمِّىٍّ شِبراً من أرضه ولو كان ذلك شِرَاء . وبعد أن بهرتهم الحماية والأمْن اللذان أفاءهما عليهم الإسلام ، نظير خراج عن أملاكهم التى لم يمسَسْها سوء ، عادوا أو عاد بعضهم يتساءل : ولماذا الخَراج . . ؟ !

* وبعد أن كانت روح الإسلام تُدثِّرهم جميعاً ، كأمَّة واحدة . حتى الذين لم يسلموا وآثروا البقاء على دينهم ، وعاشوا فى الدولة مُواطنين تربطهم بها عهود وذِمَم . . حتى هؤلاء صهرتهم روح الإسلام . فلم يُشكِّلوا بين وحدتها الجامعة الصاهرة نُتُوءاًولا نشازاً . نقول بعد أن كان ذلك كذلك ، عادت العصبية تَذِرُّ قَرْنها ، والقَبَلية ترفع رأسها ، والشعوبية تقول : ها أنا ذا . . ! !

* وبعد أن كانت سياسة « أبى بكر وعمر » تقوم على استبقاء زعماء الصحابة وكبارهم بالمدينة ، لايغادرونها أبداً ، تغيَّر المنهج فى عهد « عثمان » . . فانتشر بعضهم فى الأرض . وهكذا توزَّع مركز الثِّقَل الذى كان موحَّداً بالمدينة ، وفُتِن كل إقليم بزعيم . .

• وبعد أن كانت نِعم الحياة وطيباتها خاضِعةً لإرادة الترفُّع والزُّهد ، راحت أسباب كثيرة تعمل عملها فى تطويع الأنفس لسلطان الدنيا وإغراء الترف : وعلى الرغم من أن صَفْوةً كبيرة من أصحاب الرسول ظلوا مستمسكين بعزوفهم وزهدهم ، فإن المجتمع الإسلامى وقد غمره الرخاء وغطّاه الثراء ، راح يتخطى كوابح الضمير المتصوِّف آخـذاً من طيبات الحيـاة فوق حاجته ، وناهِلاً من مناعمها بغير حساب . . ! !

هذه العوامل التى ذكرناها – تُشكِّل ، أو قولوا : تُصوِّر « المناخ » الذى ستعيش فيه السنوات الصعبة بكل مشكلاتها وأزماتها .

وهذه العوامل كلها كانت – برغم خطورة عواقبها – صورة لطبائع الأشياء ، فليس من شيم الحياة البشرية مهما سَمَت نوازعها وسَيْطر تُقاها أن تظل على وتيرة واحدة ، ولا أن تتجمَّد فى أنماط واحدة .

ونستطيع أن نلخص كل هاتيك العوامل فى وصف واحد هو « التوتُّر » . .

ولقد كان هناك ظروف تاريخية ، واجتماعية ، ونفسية ، تجعل هذا التوتر محتوماً .

كما أنه كان من الممكن أن يتحول هذا التوتر إلى طاقة صاعدة ، ومَخاض سديد ، تتحول خلالهما الأزمات المزعجة إلى حُلول سعيدة ، وتلتقى مشيئة العصر بمشيئة التطور فى غير فتنة ومن غير سوء .

أجَلْ . . كان ذلك ممكناً لو لم تتقدم القوى الشريرة بكل ما يملأ أفئدتها من حقد ، وبكل ما يفعم عزمها من تربص وإصرار .

هذه القُوى المتمثلة – كما ذكرنا من قبل – فى الطوائف التى حطم الإسلام نفوذها الطاغى ، وسلبها امتيازاتها الظالمة .. ولم يكن يخلو من هؤلاء بلد ولا مكان . والمتمثلة كذلك فى القبائل اليهودية التى لم تكُفّ لحظة عن الكيد للإسلام منذ هاجر الرسول وأصحابه إلى المدينة .

لقد شحذت كل هذه القُوَى أنيابها فى عهد « عثمان » وركّزت جميعها على تغذية الشكوك ، وتوهين الولاء للدولة ، وتصعيد الأزمات ، وتحويل « التوتُّر » من طاقة تتلمَّس الطريق نحو الأفضل والأمثل ، إلى قوَّة هدَّامة ، وفوضى مُخرِّبة .. ! !

* * *

فى ذلك الحين ، وفى ظروف مُريبة ، وفَد على المدينة من اليمن يهودى اسمه – عبد الله بن سبأ – وكُنيتُه – ابن السوداء – حيث انتحل الإسلام .. ثم انتحل الغيرة الشديدة على قِيَمِهِ وحُرُماته ..

وفى المدينة ألقى سمعه المرهف لكل كلمة وكل نبأ ..

سمع نقداً بريئاً يوجهه الصحابة لبعض الأخطاء فراح يتتبعه . ليجمع من شتاته صحيفة اتهام ! !

ومضى يدرس فى صمت ودهاء كل جوانب الحياة فى المدينة ، ويفحص مواطن الضعف والقوة ، ويتسمَّع أخبار الأقاليم والأمصار ، ويتبين أقدار الصحابة وحظ كل منهم من النفوذ والمكانة .

حتى إذا جمع مادّته ، وعرف طريقه ، وأتمَّ رسم خُطّته ، شرع على الفور فى العمل والإنجاز .

وأدرك – ابن سبأ – أنه لكى ينشر الاضطراب فى الدولة والأمة ، عليه أن يوجه مُبادرته الأولى إلى الخليفة ذاته ، وإلى شرعية منصبه كخليفة للمسلمين ، ولكى يتيسر له ذلك ، لا بد أن يرفع فى وجه الخليفة شخصية من الصحابة تضاهى الخليفة فى جلاله وأسبقيته . .

هنالك بدأ نفَثاته المسمومة بهذه العبارة :

« إن لكل نبى وصياً ، وإن « علياً » وَصِىُّ « الرسول »، ولقد وثب « عثمان » على أمر هذه الأمة ، وأخذ الحق من صاحبه » . . ! !

وراح يُزكّى دعوته هذه ، بطائفة من الأحاديث التى كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أطرى بها « علياً » وزكّاه : مثل قوله عليه السلام :

« مَن كنتُ مولاه ، فَعَلِىٌّ مولاه » .

ومثل دعائه عليه السلام بشأن على :

« اللهم وَالِ مَن وَالاه ، وعَادِ مَن عاداه » .

وعلى الرغم من أن الإمام « علياً » كرَّم الله وجهه لم يكد يسمع دعوة – ابن سبأ – حتى عنَّفه وسفّهه ، وحذّر المسلمين من خبث طويته ، وسوء تدبيره . .

نقول على الرغم من ذلك ، فإن – ابن سبأ – ظلَّ سادراً فى خُطته ، وانطلق كالريح السَّموم يشعل نيران الفتنة فى أقطار الإسلام ، فرحل إلى البصرة . . ثم إلى الكوفة . . ثم إلى الشام . . ثم إلى مصر التى استقر بها طويلا . .

وخلال رحلاته تلك ، اصطفى من المفتونين به أنصاراً وحواريّين ، أطلقهم هم الآخرين ليطوّحوا بفتنته فى الآفاق . ورسم لهم منهجهم فى هذه الكلمات :

« تظاهروا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، تستميلوا الناس إليكم . . وابدأوا بالطعن فى أمرائكم . . وقولوا للناس إن « عثمان » قد أخذ الخلافة بغير حق . . وإن « عليّاً » وَصِىُّ رسول الله ، فانهضوا ورُدُّوا الحق إلى صاحبه » . . ! !

ومِن عَجب أن الفتنة الضارية التى تمادت حتى مقتل عثمان رضى الله عنه ، سارت وَفق هذه الوصايا الثلاث .

فأولا : لَبِس المحرضون عليها والمسهمون فيها مُسوح الرهبان ، ورفعوا فى أيْمانهم شعار الأمر بالمعروف وتغيير المنكر . . ! !

وثانياً : راحوا يطعنون فى الأمراء والولاة ، ويُجسِّمون أخطاءهم ويَدْحضون وُجودهم . . ! !

وثالثاً : رفعت الفتنة رأسها ، لتواجه الخليفة مباشرة ، وتطالبه بضرورة التنحِّى والاعتزال . . ! !

ولقد كانت هناك عوامل كثيرة أحسن ابن سبأ ودعاتُه استغلالها ، ومكَّنت لدعوته بين أعداد كبيرة من الناس فى الكوفة ، والبصرة ، ومصر . وكان من بين تلك العوامل ، بل على رأسها سلوك بعض المسئولين والولاة من الأمويين .

وفى تقديرنا أن دور هؤلاء فى مضاعفات الفتنة ، لا يتمثل فى أخطائهم التى كان يمكن إصلاحهم وتلافيها . بقدر ما يتمثل فى تجاهلهم صيحات النذير ، وفى استجابتهم لنداء الغرور المستَعْلِي ، والكبرياء المتحدِّية ، ثم فى مقامرتهم بمصير الخليفة ذاته فى سبيل أهواء كان فى استطاعتهم كبحُها ، دون أن يعود عليهم هذا الكبْح بخسران أىِّ خُسران . .

فموقف « معاوية » عامل الخليفة على الشام يومئذ من وفد المعارضة لم يكن فى مستوى مسئولياته ، ولا فى مستوى ما عرف عنه من قدرة على الحلم والدهاء .

لقد نَهَرَهُم بكلمات شدَّت فيهم زناد المَوْجِدة والغيظ ، حين قال لهم :

« بلغنى أنكم تَنقِمُون قريشاً ، وإن قريشاً لولاها لَعُدْتُم كما كنتم أذِلّة . . إن الله بنى هذا المُلك على قريش ، وجعل هذه الخلافة فيها ، ولا يصلح ذلك إلا لها » .

ثم تمادى – عفا الله عنه – فى عصبيته هذه فقال :

– « وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمَها وابن أكرمِها ، إلا ما جعل الله لنبيه » . . ! !

و « سعيد بن العاص » ، عامل الخليفة على الكوفة ، يجلس وسط الناس وقد أسكرَتْه السُّلْطة ، ويلوِّح بيمناه صوب أرض العراق التى تهتز خضرة ، وزرعاً ، وغراساً . ثم يقول :

– « إنما هذا السَّواد بستانٌ لقريش » . . ! !

قريش .. قريش .. ؟؟ ! !

ماذا جرى ، حتى أخذت كلمة « قريش » مكان كلمة « الإسلام » .. ؟ !

إن استخدام هذه « النغمة » كان سابقة خطيرة . فمزية الإسلام العظمى أنه هدم ، وفى سنوات معدودة قواعدَ عصبيةٍ ، كانت من أشد عصبيات التاريخ ضراوة وعتوًّا .

الآن تعود العصبية فتطلق أهازيجها .. ؟ وعلى لسان حاكمين من حكام الدولة ومسئوليها .. ؟ ! على أن الإنصاف يقتضينا أن نذكر دور المتمردين يومئذ فى بعث تلك النغمة الكريهة .

فلقد كانت أساليبهم فى المعارضة تُثير غيظ الحليم .. لكأنما كانوا يضعون نصْبَ أعينهم إثارة الدولة بكل رجالها ، واستفزازها بشتى الوسائل والمُثيرات ، حتى يتصرف المسئولون فيها بأعصاب متوترة مشدودة ! !

ومثَل واحد يغنينا بفظاظته وغلظته عن عشرات الأمثال يقدمه لنا — جبلة بن عمرو — أحد زعماء المتمردين يومئذ ، حين تصدَّى للخليفة نفسه أمام جمع كبير من المسلمين ليقول له :

— [والله لأقتلنك يا نَعْثَل .. ولأَحْمِلَنَّك على قَلوصٍ جَرْباء] .. ! !

نَعْثَل .. ؟؟

أهذا وصف يُنْعَتُ به ، وفى وجهه ، وأمام جموع المسلمين ، ثالث

خلفاء الإسلام ، ومَنْ لقّبه الرسول بـ « ذى النورين » وقال عنه :
[.. ورفيق فى الجنة عثمان] .. ؟

وهل على قَلوص جرباء ، يريد جبَلة بن عمرو وعصابته ، أن يحملوا الخليفة الطاهر الذى جهّز جيش العسرة بألف بعير وفرس ، لم يكن فيها جرباء ولا عرْجاء .. ؟ !

إننا الآن وبعد ألف وأربعمائة عام ، ولا تصلنا بتلك الوقائع سوى الكلمات المسطورة فى كتب التاريخ ، ليأخذنا غيظ مرير من أمثال تلك المجابهة المتهورة .. فكيف إذن كانت مشاعر الذين يشهدون بأعينهم ، ويسمعون بآذانهم ، ويبصرون الخليفة فى جلال مَشيبه يتعرض لمثل تلك المِحَن والجهالات والشرور .. ؟ وكيف كانت مشاعر الخليفة ذاته .. ؟ !

على أنه إذا كان فى الواقعة التى ذكرناها ما يثير الغيظ والأسَى ، فلنعلم أنها كانت أخفَّ ما تعرض له الخليفة يومئــذ ، إذا هى قِيسَتْ بوقائع أخرى كثيرة تحــدى بهــا المغامِرُون سلطان الخلافة وكرامتهــا .

أجل ، سلطان الخلافة وكرامتها .. فالخلافة لا الخليفة ، والدولة لا رئيسها – كانت هى الهدف الذى عمل له المتآمرون طويلا ..

وهذه « السنوات الصعبة » لم يكن « عثمان » رضى الله عنه هو الذى خلع عليها هذا الوصف .. بل هى التى فرضت عليه وعلى الدولة كلها صعوبتها ، ومَشاقَّها ، وأخطارها ، وذلك بما كان يُدَّخر لها من فِتَن طال من قبلُ أمَدُ تَبييتها ..

بيد أن ذلك كله لن يُعْفِينا من هذا السؤال المحتوم .

– أين كان « الخليفة عثمان » من تلك الأخطاء التى أجاد المتآمرون استغلالها ؟ ؟

* * *

فى استطاعتنا أن نرد تلك المآخذ كلها إلى أربعة أصول :

أولها : عن الولاة . . فقد أخذوا على الخليفة أنه عزل نفراً من الصحابة ووضع مكانهم نفراً من أقربائه الذين لم تكن لهم أو لبعضهم على الأقل سابقة ترفعهم إلى مستوى الولاية على المسلمين .

ثانيها : عن الأموال العامة . . فقد قيل إن الأمويين استغلوا صلتهم وقرابتهم ، فاستحوذوا على ما ليس لهم بحق .

ثالثها : عن موقفه من بعض فضلاء الصحابة . . وعن بعض الإجراءات العنيفة التى اتُّخِذت ضد بعضهم . .

رابعها : عن موقفه من بعض مسائل الدين . . إذ كان له فيها اجتهاد خاص .

* * *

فأما عن الوُلاة ، فمن حق الخليفة أن يختار الرجال الذين يعاونونه على حمل مسئوليات الحكم ، ما دام هذا الاختيار لا يَنجمُ عن هوًى يُناقض أو يناهض القِيَمَ الرئيسة للدولة وللمجتمع ، وهى هنا – كتاب الله ، وسنة رسوله .

على أن « عثمان » رضى الله عنه ، وإن يكن التغيير من حقه ،

لم يستعمل هذا الحق مبادئاً . إنما دفعته إليه ظروف الأقاليم التى غيَّر وُلاتها ، وإلحاح أهل تلك الأقاليم بضرورة التغيير .

وأول إقليم ناله التغيير ، كان إقليم الكوفة . وكان واليه « المغيرة ابن شعبة » ولقد رغب أهل الكوفة فى تغييره . . فعزله « عثمان » وولى مكانه « سعد بن أبى وقّاص » . .

وظل « ابن أبى وقّاص » حاكماً للكوفة حتى نشب خلاف كبير بينه وبين « ابن مسعود » الذى كان خازناً لبيت المال فيها ، فعزل الخليفة « سعداً » ووضع مكانه « الوليد بن عقبة » . .

وبقى الوليد بن عقبة والياً عليها . . وأبلى بلاء مبيناً فى غزو أذربيجان وأرمينية . . ولكن حين نمى إلى الخليفة أنه يشرب الخمر ، استدعاه إلى المدينة على الفور فأقام عليه الحدّ وعزله ، وولى مكانه « سعيد بن العاص » .

وأما البصرة ، فقد أرسل أهلها وفداً إلى المدينة يطلبون منه عزل واليهم « أبى موسى الأشعرى » فاستجاب لهم . . وولّى مكانه « عبد الله ابن عامر »

وأما مصر ، فقد تكرر إلحاح الوفود القادمة منها إلى المدينة طالبة تنحية « عمرو بن العاص » وتولية آخر مكانه . . فعزله الخليفة عن الحرب والخراج ، وأبقاه على الصلاة ، وولّى « عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح » على الخراج والحرب . . بيد أن الخلاف لم يلبث حتى نشب بينهما ؛ فاستدعى الخليفة « عمرو بن العاص » إلى المدينة ، وتفرد ابن أبى سرح بولاية مصر كلها . .

هكذا كان موقف الخليفة من الـولاة المعزولين . . استجابة سريعة لرغبات المواطنين فى تلك الأقاليم .

فإذا بقى من مآخذ يُناقَش فيها حول هذا الموضوع . . ؟ قيل : إنه تخطّى الصالحين من أصحاب الرسول فلم يولّهم تلك المناصب الشاغرة ، وادّخرها لأقاربه . . فعبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى ولاه مصر ، هو أخوه من الرضاعة . . وعبد الله بن عامر الذى ولاه البصرة ، ابن خاله . . ومعاوية الذى استبقاه على الشام ، ابن عمه . . ومروان ابن الحكم ، الذى أعطاه رئاسة الديوان ، ابن عمه . .

• فأما تخطيه الصالحين الورعين إلى غيرهم ، فقد أجاب الخليفة نفسه عن ذلك ، بأن أمير المؤمنين « عمر » كان يفعل ذلك أحياناً ، لا إهمالا لشأن الصلاح والورع ، ولكن نشداناً للصلاحية والكفاية ، وضربَ الأمثال ببعض الذين اختارهم « عمر » للإمارة ، على حين كان معه فى المدينة من أصحاب الرسول مَن يفوقهم ورعاً وتقوَى .

• وأمّا إيثاره أهلَه الأقربين ، فتلك مسألة لا تتردد فى القول بأنه كان من الخير للخليفة أن ينتهج فيها منهجاً آخر ، مهما تكن كفاية الأقربين وصلاحيتهم

إن الخليفة – رضى الله عنه – ليذكُر يوم ذهب العباس عمّ النبى عليه السلام يسأل النبى أن يُوليه إمـارة ، فقال له وهو يذوده عنهـا :

« إنا والله يا عَم ، لا نُولى هـذا الأمر أحداً يسأله ، أو أحداً يحرص عليه » .

ثم أَتْبعَ قوله هذا بنصيحة غالية :

« يا عبـاس ، ياعمّ النبي محمـد .
إيّاك والإمارة ، فإنهـا نِعْمَتِ المرْضِعة .
وبِئْسَت الفاطِمة » . . ! !

وفي تلك السنوات الصعبة بالذات ، حيث اشرأبّت أعناق الفتنة ، وأخذت العصبية تُرسل فحيحها ، كان من حق الناس على الخليفة أن يجنبهم كل تساؤل يدور حول الأمويين وحول ما يأخذونه لأنفسهم من امتيازات . . لكن هذه القضية لا تقترب من الإنصاف إلا بقدر ما نقترب نحن من الظروف التي كانت تشكل يومئذ وعاء للأحداث كلهـا .

والظروف كما قلنا من قبل ، كانت تُشكّل فتنة عارمة وجامحة تهدف في التحليل النهائي لأهدافها إلى تقويض الدولة المسلمة التي قَوّضت في بضع سنوات أركان العالم القديم المحيط بها .

والآن وقد أُعِدَّت المؤامرة تماماً ، فإنها تتلمس كل سبب لتوجيه ضربتها الأخيرة إلى معقل الدولة . . الخليفة ذاته . وليكن على رأس تلك الأسباب قضية الوُلاة . .

ولقد كانت نزوة التشهير بالأمراء دَيْدَناً قديماً لبعض الأقاليم ، وكان أمير المؤمنين « عمر » وهو يدعم تجربة الحكم الإسلامي في سنواتها الأولى يؤثر دائماً أو غالباً أن يضع رغبات المحكومين موضع الاعتبار والتقدير – خاصة فيما يتعلق بتغيير أمرائهم الذين يرغبون في تغييرهم ،

ولقد رأينا كيف سار الخليفة « عثمان » على نهجه ، فغير أمراء البصرة ، والكوفة ، ومصر ، نزولا على رغبات أهل تلك البلاد .

ولكن المسألة سرعان ما تحوّلت إلى جزء من المخطط المرسوم لتخريب الدولة وتجريدها من سلطانها . ولم يعد الاستسلام لرغبات التشهير والتغيير سوى مظهر لعجز ، سيزيد المتآمرين إغراء وقوة . هنالك لم يكن بُد من زجر تلك المحاولات المغرضة ، ولم يكن للدولة بد من أن تُضفى على موقفها قدراً كبيراً من الحزم والحَسْم .

ولقد وقف الخليفة وقفته الرشيدة التى صورتها كلماته هذه للمتمردين .

« وأىُّ شىء لى من الأمر ، إذا كُنتُ
كلما كرهتم أميراً عَزَلْتُه .. وكلما رضيتم
عن أميرٍ ولَّيْتُه » .. ؟؟ ! !

إن هذا الموقف بصرف النظر عن أى اعتبار آخر ، يشكل فى أيام الفتن والمؤامرات ، الضمان الأهم لحماية الدولة من التفسُّخ والضياع .

فإذا استطاع حفنات من المتمردين ، أن يصدروا أوامرهم للدولة ، ويسلبوها أخصّ حقوقها ؛ فما من سبيل آنئذ لاستبقاء كيانها وكرامتها ، سوى دَحْضِ المشيئة المتمردة والمتطفلة عليها .

* * *

وصحيح أن « عثمان » رضى الله عنه كان من أكثر الناس حبًّا لأهله ، وصِلَةً لِرحمِه .

ولا بد أن هذا الحب المفرط للرَّحم ولذوى القُرْبىَ ، كان

واحـــداً من أسباب اختيار هؤلاء الأمراء .. بيـد أنه لم يكن كُلَّ الأسباب .

فالفتنة التى نجحت يومئذ فى زلزلة الثقة المتبادلة من المسلمين وخليفتهم ، وضعت الخليفة فى « مُناخ نفسى » حمله على التماس الثقة المفقودة ، عند أقرب الناس إليه وأحناهُم عليه .. فلنضع هذه مِن أسباب إيثارِه أهله وذوى قُرباه .

كذلك كان هناك التحدى الذى يستهدف شخصه ، ويتنكَّر فى دعوى المناداة بعزل الأمراء الأقربين .. كان هذا التحدِّى بكل ما توسل به من تهجُّم على الخليفة وتمرُّد على مقامه ، سبباً آخر من أسباب تشبُّثه باختياره ..

ثم كانت هناك كفاية أولئك الأمراء .. فعلى أيديهم ، وتحت إمرتهم وقيادتهم ، سارت جيوش المسلمين لتقهر ذلك التمرد المنتشر كالنار فى أنحاء الدولة كلها .. وباستبسال خيار الصحابة الذين اشتركوا فى تلك المعارك ، عادت البلاد الهاربة إلى حظيرة الإسلام ، وتحطمت جيوش « بيزنطة » وجيوش « فارس » وخفقت إلى الأبد رايات الإسلام فى تلك الديار ..

من حق الخليفة إذن أن يعتز ببلائهم هذا ، ومن حقه ألا يجعلهم مضغة فى أفواه المتمردين والمخربين من أعوان « ابن سَبأ » حامل لواء الفتنة وناشر الظلام ..

* * *

وهنا سؤال لابد من طَرْحه حتى نكون أمَناء على الحقيقة التى نقتفى آثارها . .

ذلكم هو : هل كان أولئك الأمراء الذين اختارهم الخليفة من ذوى قُرباه ، هدفاً لسخط المتآمرين المخربين وحدهم ؟ أم أنهم كانوا كذلك موضع سخط نفر من خيار الصحابة وفُضلائهم . . ؟

وماذا كانت أسباب هذا السخط ودواعيه . . ؟ وماذا فعل الخليفة لتفاديه . . ؟

* * *

من المعروف أن عدداً من خيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانوا ومعهم الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، يرون صالح الأمة والدولة فى تنحية الأمراء الأمويين ، وتنحية مروان بن الحكم الذى كان يشرف على ديوان الخلافة .

وكانت وجهة نظرهم تتمثل فى أن إيثار هؤلاء الأمراء الأمويين بالإدارة يضفى على شكل الحكومة طابع الأثَرَة . . كما أنهم — أى الأمراء — لم يكونوا فى مستوى القدوة التى تفرضها وتتطلبها مناصبهم ، لا سيما فى تلك الآونة التى لا يشد أزر الإسلام فيها شىء مثلما تشده التقوى والإخبات والورع وضربُ الأمثال العالية من أولى الأمر فى التفوق على مغريات الترف ، وزخرف الحياة .

أى أننا نستطيع القول إنه كان هناك يومئذ مؤامرة . . ومعارَضة . .

• مؤامرة : يتولاها ، ويُعِدُّ لها الناقمون على الإسلام كله :

الدين ، والدولة ، والأمَّة . . يهدفون بتآمرهم المتفَشِّي والمسعور ، إلى إنزال ضربات قاصمة بالدين ، وبالدولة ، وبالأمَّة .

« ومُعارضة : يقوم بها نفرٌ من خيار الصحابة رضوان الله عليهم يهدفون بها إلى تصحيح الخطأ ، وإقرار الصواب فى حدود الكلمة الصادقة ، والنصح الأمين . .

ولئن كانت نفس الخليفة قد امتلأت يقيناً بسوء طويَّة المتآمرين السَّبئيين فى تشهيرهم بوُلاته ، فلا نحسبه قد خالجه الشك لحظة فى سلامة الباعث الذى حدا خيار الصحابة من أمثال « على ، وعمَّار » إلى اتخاذ موقفهم العدائى من أولئك الوُلاة . .

بيد أنه كان يدير خواطره على القضية بطريقة أخرى ، فهو غير مقتنع بوجوب عزلهم لمجرد أنهم من ذوى قُرْباه . . ولا لأنهم تفسَّحوا فى مناعم الحياة . . وهو يريد أن يُدانوا بأخطاء تستوجب عزلهم . وآنئذ يكون حقًّا عليه عزلهم بغير إبطاء .

من أجل ذلك نراه يبادر بإجراء سديد .

فلقد اختار نفراً من الصحابة الذين لا يختلف فى نزاهتهم ، ولا يختلف فى أماناتهم وورَعهم ، اثنان .

اختار « محمد بن مَسْلمة » الذى كان أميرُ المؤمنين « عمر » يأتمنه على محاسبة وُلاته ، والتفتيش على الأقاليم ، وتقصِّى أحوال الناس فى كل بلد .

واختار « عبد الله بن عمر » البقية الصالحة من آل الخطاب ،

والإمام الفقيه الوَرِع الذى عرضت الإمارةُ عليه نفسها أكثر من مرة ، ورفضها فى كل مرة . .

واختار « عمار بن ياسر » المجاهد العظيم المبرور ، بطل الأيام العصيبة فى فجر الإسلام . .

واختار « أسامة بن زيد » الحِبّ ابن الحبّ ، الذى كان الرسول يتهيأ للقاء ربه وهو يقول :

« أنفِذوا بَعْثَ أُسامة » . .

اختار هؤلاء على رأس جماعة عهد إليهم السفر إلى الأقاليم والتحقق من مسلك كل وال وأمير .

أليس عملا سديداً ومنهجاً عادلا وحكيماً . . ؟؟ بلى . . فماذا كان جواب أولئك السفراء المبعوثين . . ؟ لقد عادوا جميعاً — عدا عمار بن ياسر — الذى كان قد أُرسل لتقصى الحقيقة فى مصر فطال بها مُكْثُه .

عاد « ابن مَسْلَمة » من الكوفة . .

وعاد « عبد الله بن عمر » من الشام . .

ورجع « أسامة بن زيد » من البصرة . .

وقدموا للخليفة تقاريرهم وما شهدوه وما سمعوه ، فما كان هنالك خطأ واحد يستوجب عزل أمير . . ! !

تُرى هل تُعتبر شهادتهم هذه دحضاً لموقف « الإمام على » وإخوانه من أولئك الأمراء . . ؟ ؟

كلا . كما أن موقف الإمام وأصحابه لا يعتبر دحضاً لموقف الخليفة عثمان . . ذلك أن الفريقين متفقان على رعاية حرمات الإسلام .

ولكنهما فى هذه القضية ينظران إليها من زاويتين مختلفتين .

فالإمام وأصحابه يرون ألا حقَّ للطلَقاء فى ولاية أموز المسلمين . . خاصةً أولئك الذين كان لهم قبل إسلامهم وبعد إسلامهم انتكاسات لا تجعلهم للولاية أهلا .

و « الطلَقاء » هم أولئك الذين أسلموا يوم فتح مكة تحت بريق السيوف ، وأشرف الرسول على جموعهم الضارعة المرتجفة وناداهم :

« اذهبوا ؛ فأنتم الطُّلَقاء »

ومن هؤلاء ، كان أولئك الأمراء الأمويون الذين يدور حولهم الخِلاف .

أما « الخليفة عثمان » فقد كان له فى القضية رأى آخر . . هو أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله . . وأن التوبة تَجُبُّ ما قبلها . .

فأخطاء هؤلاء قبل الإسلام ، قد وضع الإسلام عنهم وزرها .

وأخطاؤهم ، أو أخطاء بعضهم بعد الإسلام ، قد وضعت التوبة عنهم وِزرَها .

وفى رأى الخليفة أنه ما لم يُدَنْ أحدهم باقتراف منكر أو ظلم لِرَعيَّة ، فإن عزله عن الإمارة لا سيما تحت ضغط الفتن المسلَّحة التى يقودها جماعة من الموتورين والمخربين ، يصبح أمراً فوق طاقة اقتناعه ، وضميره .

لقد كان الوليد بن عقبة أميراً للكوفة ، وحقق للدولة انتصارات

كبيرة ، ثم هو فى الوقت نفسه من ذوى قُرْبىَ الخليفة . . ومع ذلك كله ، فإنه حين ترامت إليه أنباء احتسائه الخمر لم يمهله يوماً . . بل استدعاه إلى المدينة ، وعزله عن الإمارة . . وأقام عليه الحدَّ جهاراً عَلَنا . . وهذا هو ما لنْ يتأخر عن صُنْعه تِجاه الأمراء الآخرين من ذوى قُرْباه ، إذا أدِين أحدهم بخطأ يستوجب عزلا أو عقاباً .

ذلك فى إيجاز ، كان رأيه فى أزمة الوُلاة . وهو رأى ازداد به اقتناعاً بعد عودة مبعوثيه إلى الأقاليم ، معلنين فى أمانة وصدق أنهم لم يروا مُنكراً ، ولم يشهدوا ظُلما .

ومع ذلك ، فقد بعث كُتُبه إلى الأقاليم جميعاً يقول فيها :

« بلَغنى أن أقواماً منكم يُشْتَمون ، وآخرين يُضْرَبون ، فمن كانت له مظلمة فليأتنا فى الموسم ، وليأخذ بحقه منى أو مِن عُمّالِى عليكم » . .

* * *

وهناك حوار ينقله لنا « ابن كثير » فى كتابه ، قام بين « الإمام على ، والخليفة عثمان » يضع وجهتى نظرهما وجْهاً لوجه ، وبالتالى يغمر القضية بضوء جديد .

ولقد جرى هذا الحوار يوم اختار الناس « عليًّا » كى ينقل إلى الخليفة ما فى أنفسهم من شكاة ومضَض ، وجلس الإمام إلى الخليفة وحدهما ، وبثَّه كل ما فى نفسه ونقل إليه ما فى أنفس الآخرين ،

وكانت كلمات الإمام مُترعَة بحرصه الشديد والنَبيل على خير الخليفة وخير الأمة .

وعقب « عثمان » على كلمات « على » قائلا :

« أمَا والله لو كنتَ مكانى ما عنَّفتُك ، ولا أسْلمتُك ، ولا عِبْتُ عليْك . .

« أتُرانى جئت منكراً إذ وصلْتُ رَحِماً ، وسدَدْتُ خلّة ، وآويتُ ضائعاً ، ووليْتُ شبيهاً بمن كان – عمر – يُوَلِّى . . ؟ ؟

« أناشدك الله يا على . .

هل تعلم أن المغيرة بن شعبة كان والياً لعمر . ؟

قال على : « نعم . .

قال عثمان : « فَلِمَ أُلامُ إذ ولَّيتُ ابن عامر فى رحمه وقرابته ، وليس للمغيرة عليه كبير فضل . . ؟

قال على : « سأخبرك . . إن – عمر كان إذا ولّى أحداً فإنما يطأ على صِمَاخَيْه ، فإن بلَغه عنه شىء جاء به وبلغ فى زجره أقْصَى الغاية . . أمّا أنت فلا تفعل ، فقد ضعفت ورفقت بأقربائك .

قال عثمان : « هم أقرباؤك أيضاً يا على .

قال علي : « نعم .. إن رَحِمَهُم منى لقريبة ؛ ولكن الفضلَ فى غيرهم ..

قال عثمان : « ألم تعلم أن – عمر – ولَّى معاوية طوال عهده وخلافته ، فهل ألامُ إن أنا ولَّيتُه .. ؟

قال علي : « فهل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من « يَرْفَأ » غلام عمر .. ؟

قال عثمان : « نعم ؛ كان كذلك ..

قال علي : « فها هو ذا يقطع الأمور دونك ، وأنت لا تَنهاه » ...

هذه الفقرة من الحوار ، ترينا كيف كان هناك اقتناعان يحركان الدولة ، والمعارَضة – كلاً فى اتجاه .. وحين نقول « المعارضة » فإنما نعنى بها المجموعة الخيِّرة من الصحابة وعلى رأسهم ابن أبى طالب ، دون أن نعنى بحال تلك العصابات الأخرى التى كانت تُعد للفتنة الجامحة ، فى أقطار الدولة وأمصارها ، والتى لم تَخْبُ نارها حتى اغتالت الخليفة فى وحشية بالغة .

وفى هذا الحوار نرى فى وضوح تام تصوُّر الخليفة للموقف .

فهو يرى فى موقف المعارضة – حتى برغم سلامته وسداده – معاضدة للآخرين الذين يُبيتون له الشر ويتربصون به الدوائر ؛ فهو لهــذا يقول للإمام على : [لو كنت مكانى ما أسلَمْتُك ، ولا عنَّفتُك] .

ثم هو يرى فى إسناد الولاية إلى نفر من أقاربه ، نوعاً من تألُّفهم

والإحسان إليهم ، واستبقاء ولائهم للإسلام ، فضلاً عما أظهروه من كفاءة واقتدار فى الإدارة وفى القتال .. كذلك يرى أنه فى إيثاره ذوى الكفاءة والمقدرة على بعض ذوى الفضل والورَع ، إنما يتأسّى بما كان يصنعه – أحياناً – أمير المؤمنين عمر . .

وهكذا تشكّل اقتناع الخليفة تجاه أزمة الولاة واتخذ فيها موقفاً ثابتاً صامداً .

وكان للمعارضة اقتناعها الذى عبرت عنه كلمات الإمام على فى حواره مع الخليفة .

فالإمام يرى أن المطالبة بتنحية هؤلاء الأمراء قضية عادلة .

وأنه إذا وُجد أناس يتخذون من التشيّع للحق ستاراً يخفون وراءه أغراضاً باطلة – كما تفعل عصابات التمرد والفتنة – فليس معنى ذلك أن يسكت المخلصون للحق عن الجهر به والدعوة إليه .

كذلك يرى « الإمام » أن تقوى الأمير أهم من كفاءته . . وإخلاصه أرجح من ذكائه . . وأنه إذا كان « عمر » قد آثر أحياناً ذوى الذكاء والدهاء والمقدرة ، فلأنه كان يُحكم قبضته على ولاته وأمرائه جميعاً ، بصورة لا تمكن أحدهم من أن يُغمض عينه عن الحق لحظة من ليل أو من نَهار . . أما الآن والخليفة يُدْلِفُ نحو الثمانين ، ثم هو بطبيعة الحال طيِّب ، متسامح ، هادئ الفَوْرة ، مأمون الغضب ، فإن أولئك الأمراء يتصرفون تصرّف من ليس وراءه معقب ، ولا عليه رقيب .

لم يكن « الخليفة » يبرئ ولاته من الخطأ . ولكنه كان يريد أخطاء كبيرة تبرر عزلهم وإبعادهم .

وكان « الإمام » يرى أن نشأتهم وطباعهم وتكوينهم النفسى والعائلى ، لا يجعلانهم أنسب الناس للمناصب التى يتولونها ، وأنهم بهذا ولهذا ، سيتمادون فى الأخطاء ويستمرئونها حتى تبلغ بهم المنزلق الوعْر والهُوَّة الفاغرة . .

والحق أن الحوادث مضَت نحو غايات مريرة كشفت عن صدق فِراسة « الإمام على » وعن سداد نَظرته وسلامة وِجْهَتِه [١] .

* * *

وننتقل الآن إلى ثانى المآخذ ، أو ثانية الأزمات التى ثارت ثائرتها حول الخليفة ، وهى خاصة بالأموال العامة .

وبادئ ذى بدء ، نؤكد أن أحداً مّا من خصومه لم يكن إذا خلا بنفسه لِيُدين ذمَّته بسوء ، حتى أولئك الذين أثاروا الفتنة لوجه الفتنة وائتمروا بدمه وحياته .

لقد كانت طهارة ذمته ، وعظمة نفسه ، وطُهر أخلاقه موضع يقين لا يتطرق إليه شك ولا يقترب منه مغمز .

كل الذى قيل يومئذ وتولّى المتآمرون تضخيمه ، هو أن الخليفة كان يختَصُّ ذوى قُرباه بمزيد من الأعطيات من بيت المال . . ولقد سرح بهم الخيال السقيم إلى القول إن الخليفة أقْطَع مروان بن الحكم خُمس أفريقية مرة واحدة . . ! !

---

(١) راجع كتاب « فى رحاب على » للمؤلف .

وراح المتآمرون ضد الإسلام وضد الخليفة يُروِّجون الإشاعات الكاذبة الخبيثة حول التصرفات المالية للخليفة .

• فإذا زوَّج ابنه من ابنة الحارث بن الحكم ، وزوَّج ابنته من ابن مروان بن الحكم ، وجهَّزهما – من خالص ماله الذى كان واسعاً ووفيراً من الجاهلية إلى الإسلام ، قالوا إنه جهزهما من بيت مال المسلمين . . ! !

• وإذا اقترض عبد الله بن خالد بن أسد بضعة آلاف من بيت المال وكان من حق المسلمين يومئذ أن يقترضوا من بيت مالهم – قالوا : إن الخليفة منحه إياها بغير حق . . ! !

• وإذا توسّع فى المراعى التى كانت الدولة منذ عهد « عمر » تحميها لإبل الصدقة ولتنمية الثروة الحيوانية ، أرسل – ابن سبأ – وفداً من ثُوّار مصر ليتهم الخليفة بأنه إنما فعل ذلك كى يُسَمِّن إبِلَه وماشيته . . ! !

• ولقد حدثَ أن ولّى « الخليفة » الحارث بن الحكم أمانة سوق المدينة ، واستغلّ الحارث وظيفته ، فراح يشترى النوَى ويحتكره . . ولم يكد الخليفة يعلم بهذا حتى استدعاه إليه وسفّهه ثم عزله من فوره . . فهذه أيضاً نسجوا منها اتهاماً . . ! !

• وكانت الأرض البوار التى لا تجد من يزرعها ويستثمرها ، تملأ فجاج الأمصار ، لا سيما فى سواد العراق ، فراح الخليفة يُقطعها نفراً من أثرياء الصحابة الذين يمكنهم ثراؤهم من الإنفاق عليها واستثمارها . وكان هناك مبدأ إسلامى يشجع على هذا التعمير .

« مَن أحيّا أرضاً ميتة فهى له »

فهذه أيضاً نسجوا منها اتهاماً . . ! !

* وكان أمين بيت المال « عبد الله بن أرقم » قد تقدمت به السن ، كما وقع خلاف هادئ بينه وبين الخليفة ، فرأى الخليفة أن يُولى مكانه « زيد بن ثابت » .

هنالك أطلق المرجفون المتمردون قولَتهم بأن الخليفة عزل ابن أرقم ، لأنه عارض إسرافه وتصرُّفاته . .

تُرى لو كان ذلك كذلك ، أفما كان الأجدر بالخليفة أن يختار رجلا غير « زيد بن ثابت » . . ؟

إن « زيداً » هذا ، هو الذى ائتمنه « أبو بكر ، وعمر ، وعثمان » على جمع القرآن . .

وهو الصحابى الجليل الذى كان له فى قلوب المسلمين كافة أعمق مشاعر الاحترام والثقة والتقدير . . وهو بدينِه وبخلقه وبأمانته لا يمكن أن يتحمل أمام ربه مسئولية أى جَنَف أو تقصير . .

هذا هو الرجل الذى ولاه الخليفة بيت المال .

ومع ذلك ، فقد نسجوا من هذه الواقعة اتهاماً . .

* بل لم يخجلوا من أن يزعموا أن الخليفة كان يأخذ من بيت مال المسلمين ليبنى لنفسه ولأهله قصوراً وينشئ ضياعاً . . ! !

* * *

لقد اتخذ المرجفون فى المدينة وفى الأمصار من المسائل المالية موضوعاً خِصْباً لأخيلَتهم التى راحت تنسج الأكاذيب ، وتصنعَ البُهتان .

ولُربَّما يقال هنا : لا دخان بغير نار . . وإذا كان أعداء الخليفة قد اتخـذوا من تصرفاته المالية مادة ثَرَّةً للتجريح والإساءة ، أفلا يَشِي ذلك بوجود أخطاء فى تلك التصرفات ، أجاد المرجفون والمتآمرون استغلالها . .

والحق الذى نستخلصه من استكناه الوقائع التاريخية عن ذلك العهد ، أن خصوم الخليفة من أتباع ابن سبأ والمتآمرين معهم ، كانوا فى حملة التشهير بالخليفة لا ينتظرون وجود أخطاء ينسجون منها بهتانهم . . فلقد كانوا مصممين على هذا التشهير وقادرين عليه ولو برئت تصرفات الخليفة المالية من الهَفَوات ، لَمـا رَضُوا أن يدعوا صفحتها بيضاء من غير سوء .

ولَسْنا ننفى أو نستبعد وقوع أخطاء . . إنما ننفى بيقين كامل أن تكون هذه الأخطاء ناجمة عن أدنى قُصور فى ذمة الخليفة العظيم وأمانته — الأمر الذى أراد المتآمرون أن يَصِلوا إليه . . ! !

كل الذى حدث يومئذ ، وشكَّل بدوره مُناخاً صالحاً لتفريخ الأراجيف ، أن الأموال قد درَّت لِقاحُها ، وكثرت فى أيدى الناس جميعاً ، وكثرت معها المناعم ، واستشرَى الترَف ، ولم يكن مع الأمراء الأمويين من الزهد ولا من الوَرَع ما يصرفهم عن مشاركة الناس فى تَرَفهم وتبذُّخِهم ، بل راحوا بحكم نشأتهم يُبالغون فى الترفُّه والاستمتاع .

وكان الخليفة عن اقتناع — لا عن استهانة — لا يرَى بأساً فى أن يستمتع الناس ما شاءوا بمناعم الحياة ، ما داموا لا يأخذون المال من حرام ، ولا ينفقونه فى إثم .

ونحن نسلّم بداهة أن الخليفة « عثمان » لو سار فى هـذه المسألة على نهج سلفه « عمـر » وكبحَ جماحَ الأنفس عن الإغراق فى الطيبات المشروعة ، لكان ذلك أسلم . . لا سيّما بالنسبة للوُلاة والأمراء الذين يجب أن يظلوا دائماً قدوة للآخرين فى بساطة العيش والترفّع عن إغراء النعيم .

ولكنّ سؤالا يفرض نفسه علينا فرْضاً . . هو : هل كان ذلك ممكناً ، مع رياح التغيير والتطوّر التى هبّت على الدولة الواسعة العريضة من الجهات الأربع ، حاملة أُمماً شتَّى . . وحاملة مع تلك الأمم والجماعات ، تقاليد وعادات تضطرم فى موج كالجبال . . ؟؟ ! !

تلك هى القضية . . وفى ضوء هذه الحقيقة قبل سواها يجب أن نبحث عن تفسير مآخذ الإسراف والترف التى أرادوا أن يحمّلوا الخليفة وحده مسئوليتها .

الخليفة التى تبقى ذمته برغم كل شيء ، كاملة الطُّهر ، ناصعة النقاء .

* * *

والآن ، إلى ثالثة الأزمات . . تلك التى تتمثّل فى الخلاف الذى شَبَّ أُوارُه بين المعارضة النزيهة البريئة ، قام بها نفَـرٌ من خيـار الصحابة – وبين الخليفة « عثمان » رضى الله عنـه وعنهم أجمعين .

لقد أُخِذ على الخليفة أنه كان له موقف اتَّسمَ بالعنف تِجاه الصحابى الجليل – أبى ذَرٍّ الغِفارِىّ . . والصحابىّ الجليل – عمَّار بن ياسِر . . والصحابى الجليل – عبد الله بن مسعود . .

وإنا لنُجانب الصواب إذا نحن درسنا هذا الخلاف بعيداً عن الإطار العام للأحداث والفتن التي كانت تجتاح الدولة والمجتمع يومذاك .

لقد كان قميناً بكل خلاف في الرأى يقع بين الخليفة وإخوانه من الصحابة الفضلاء السابقين ، أن يجد حَلَّه الموفق السعيد ، لولا ذلك الجو القاتم الذى كان المتآمرون المغرضون قد أفلحوا في صنعه .

لقد غطَّوْا ضوء النهار بفتنة مظلمة سوداء ، تَدَعُ الحليم حيران . . ! !

ولقد استغلوا ذلك الخلاف الصادق البرىء ، في تأريث نارهم التي يُوقِدون .

وصارت النصيحة الأمينة الهادئة التي يقولها صحابى جليل ، تتحول على أفواه المشّائين بنَميم ، إلى قذف وسباب . .

وكلمات العتاب التي يرسلها الخليفة في أناة ، تتحوَّل على نفس تلك الشِّفاه المسمومة إلى وعيد وتهديد . .

وليس أشدَّ إيلاماً لنفس الرجل الحَيِيّ المُفْرِط الحياء ولا أدْعَى لغضبه ، من أن يتخذ الناس حياءه سبباً لاستضعافه وللتجرُّؤ عليه .

تلك قضية من قضايا النفس البشرية لا تحتاج إلى برهان .

ولقد كان « عثمان » رضى الله عنه مُفرِط الحَياء . . وبدلاً من أن يَصُدَّ هذا الحياءُ تهوُّرَ المتآمرين على وقار الخليفة ومكانته ، إذا هم تُجلِبِب نفوسهم من كل توقير لهذا الحياء . . ! ! !

هنالك مُلِئَت نفس الخليفة ألَماً ، وتأجَّجَت غضباً ، وقال للمتمردين قَوْلَته المأثورة :

« ... أمَا والله ، لقد عِبتُم عَلَىَّ بما أقررتُم لابن الخطاب .. ولكنه وَطِئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكُم بلسانه ، فَدِنتُم له على ما أحببْتُم أو كَرِهْتُم ..

« أمَّا أنا ، فَلِنْتُ لكم ، وأوطَأتُ لكم كَنَفِى ، وكَفَفتُ يدى ولسانى عنكم ؛ فاجْتَرأتُمْ علَىَّ » ...

إن هذه الكلمات المتفجعة ، تكشف عن الجرح الذى أدمى مشاعر الخليفة الحيىّ ، المتسامح ، الوديع ! !

ورجل مثل « عثمان » فى أناته وهدوء سَمْتِه ، لا يتفجّر غضبه فى كلمات كهذه ؛ إلا إذا كان الجُرح قد بلغ من نفسه أعماقها ، وإلا إذا كان شعوره باستخفاف المتآمرين قد جاوز القدرة على الصبر والاحتمال .

وفى جوٍّ نفسِىّ كهذا ؛ فإن مَسَّ الصديق يُدمى البَنان .

ومن هنا لم تكن نفس الخليفة الممتلئة بالجراح ، مهيأة للتجاوُب مع المعارضة التى أثارها رِفاقُه فى الدعوة وفى التضحية وفى صحبة رسول الله منذ الأيام البعيدة الباكرة فى فجر الإسلام .

ولم يكن ذلك منه استنكافاً لكلمة الحق ولا استعلاءً عليها .. إنما كان ذلك ، لأنه رأى المتآمرين يتخذون من معارضة هؤلاء الأصحاب الكرام وقُوداً لفتنتهم المدمِّرة ..

ولسنا نريد بهذا التوضيح أن نشجُب حق الصحابة الأجلاء في نقد ما رأوه من خطأ ، فما كان لمثلهم أن يسكت على خطأ .. وإنما أردنا أن نبصر بعينين مفتوحتين طبيعة « المُناخ النفسي » الذي كان يعكس نفسه لا محالة على مشاعر الخليفة وعلى تفكيره .

* * *

والآن نتجه إلى وقائع الخلاف الذي قام بين الخليفة وأولئك الأصحاب .. هذا الخلاف الذي استغله زعماء الفتنة المسلّحة ، وشكّلوا منه اتهاماً برّروا به مع غيره انتهاكهم حرمة الخلافة ، وحياة الخليفة ..

ونبدأ بالخلاف بين الخليفة وأبي ذَرّ ، رضي الله عنهما ..

وأبو ذر الغِفاريّ واحد من أعظم الرُّواد الذين أنجبهم الإسلام[١] .

استخلص من روح الإسلام منهاجاً في الزهد وفي توزيع الثروات ، ثم راح يبشر به في تفان رُهباني عظيم ..

وهو بمنهجه هذا لم يختلف مع الخليفة وحده . بل اختلف كذلك مع بعض الصحابة الآخرين الذين كان لهم من المال وفرة ومدَّخَر ..

ذلك أنه كان يرى في الأموال ودائع الله عند عباده ، استخلفهم فيها ، ولكلٍّ أن يأخذ منها حاجته وضرورته ثم لا يزيد ..

كذلك كان يرى أن « محمداً وأصحابه » إنما جاءوا الحياة ، ليعطوا .. لا ليأخذوا ..

ولقد أعطى الرسول الحياة أثمن العطايا وأروعها بما نفحها من هُدًى ، وحقيقة ، ونور ، ثم رفض طوال عمره أن يَعْلَق بيديه شيء

---

(١) راجع كتاب « رجال حول الرسول » المؤلف .

من زخرفها ونعيمها ، بل مات ودرعه مرهونة فى حفنات شعير صنع منها خبزاً يابساً له ولأهل بيته .. ؟ ! فأصحابه يجب أن يمضوا على ذات النهج حتى يلقوه ..

ولقد مضى على النهج أبو بكر .. ومن بعده عمر ..

والآن يريد أبو ذر أن تكون خلافة « عثمان » امتداداً لأيام الوحى ، وأيام الصديق ، وأيام الفاروق فى زهدها ، وتقشفها ، ونبذها كل المغريات حتى المشروع منها والحلال ..

ولقد عاش – كما تنبأ له الرسول – وحده .. ومات وحده .. وسيُبعث وحده ..

أما فى الجانب الآخر ، فقد كان أكثر الصحابة لا يرون بأساً – أىَّ بأس – فى الاستمتاع بطيبات الحياة .. فالقرآن يحدثهم :

« لَيسَ عَلى الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إذا ما اتَّقَوْا وآمَنُوا وعملوا الصالحات » ..

ويُحدثهم :

« قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينةَ اللهِ الَّتِي أخرَجَ لِعبادِهِ والطَّيباتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟

« قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فى الحَياةِ الدُّنْيا ، خالِصةً يَوْمَ القِيامَةِ » ..

على أن « أبا ذر » وإن جاز أن يتسامح تِجاه الاستمتاع المعتدل بالطيبات ، فإنه لم يكن ليتسامح لحظة تجاه السَّرَف والتَّرف واحتكار

الضياع ، واكتناز الأموال .

ومن ثم ، لم يتردد فى أن يقطع الطريق وثْباً إلى الشام حينما سمع أنباء ما تموج به من ترف ، وما يشق فضاءها من بروج وقصور ، ويغطى أرضها من ضياع وبساتين امتلكها وأخلد إلى نعيمها الأمراء ، وعلى رأسهم معاوية ونفر آخر من الصحابة الذين لم يُخلقوا فى رأى « أبى ذر » للدَّعَةَ ولا لنعم الدنيا الفانية . .

وفى الشام رفع لواء معارضة كادت تعصف بمقعد معاوية . .

راح يتلو على الجماهير هـذه الآية فكأنما يسمعها النـاس لأول مرة :

« والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيم » .
« يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْها فِى نارِ جَهَنَّم ، فتُكْوَى بِها جِباهُهم وجُنُوبُهُمْ ، وظُهُورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ ، فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » .

وحاول « معاوية » أن يُهدِّئَ من ثورته دون جدوى . والحق أنه برغم إحساسه بخطر دعوته عليه ، فإن مسلكه تجاهه ظلَّ مُتَّسماً بإجلاله وتوقيره .

ولقد اكتفى بأن يكتب إلى الخليفة كتاباً يقول فيه :

– [إن أبا ذر أفسد الناس بالشام] ، فجاءه ردّ الخليفة سريعاً

– [أرسِلْه إلىَّ] . .

وعاد « أبو ذر » إلى المدينة – وجرى بينه وبين الخليفة حِوار . لم يقتنع أحدهما فيه بوجهة نظر الآخر .

وهنا نلتقي بروايتين تاريخيتين : إحداهما تقول : إن الخليفة قرر إبعاده إلى « الرَّبَذَة » مكان بعيد عن المدينة .. وأخرى تقول : إن أبا ذر هو الذى طلب من الخليفة أن يأذَن له بالخروج إلى « الرَّبذَة » حيث يقضى بها بقية أيامه .. وسواء صحَّتْ هذه الرواية أو تلك ، فليس ثمة شك فى أن الخليفة كان حريصاً على أن يظل « أبو ذر » إلى جواره بالمدينة قائلا له : [ابْقَ معنا ، تغدو عليك اللِّقـاح وتروح] .

ولكن أبا ذر ، كان يعرف نفسه جيداً ، ويعرف أنه سيظل مرتفع الصيحة ضد الأشياء التى لا يبدو أن الخليفة مستريح لطريقته فى معارضتها .

وهكذا خرج الصحابى الجليل فى هدوء إلى الربذة حيث عاش بها يعبد الله العلى الكبير ، حتى نادته ساعة الرحيل إلى الرفيق الأعلى

على أننا واجدون فى واقعة هذا الخلاف بين الخليفة وأبى ذر مشهداً يعطينا وحده الدليل الحق على أن الخلاف بين الدولة والمعارضة لم يكن مَهْما يستفحل ويتفاقم ليصل بالأحداث إلى ذلك المدى البغيض الأثيم الذى بلغه على أيدى المتآمرين المخرِّبين .

فهذا هو ذا « أبو ذر » رضى الله عنه ، يزوره بـ « الرَّبذَة » بعض متآمرى « الكوفة » ويعرضون عليه أن يتزعم ثورة مسلحة ضد الخليفة ، فإذا هو يجيبهم بهذه الكلمات الزاجرة :

« والله ، لو أن – عثمان – صلبنى – على

أطول خشبة ، أو أطول جَبل ، لسمعتُ
وأطعت وصبرت واحتَسَبْت ، ورأيت
ذلك خيراً لى . .
« ولو سيّرنى ما بين الأفُق إلى الأفق ،
لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ،
ورأيت ذلك خيراً لى . .
« ولو رَدَّنى إلى منزلى ، لسمعت وأطعت
وصبرت واحتسبت ، ورأيت ذلك
خيراً لى . . » ! ! !

هكذا كان نوع الخلاف بين الخليفة وبعض أصحابه ، وهكذا كان مَذاقُه . .

وإن لستبعاد وجود خلاف على الإطلاق ، لأَمْرٌ ضِدّ طبائع الأشياء .

* * *

والآن نُغادر واقعة الخلاف مع « أبى ذر » إلى مَثيلتها مع « عمار ابن ياسر » . . .

و « عمار »[1] صحابى جليل ، استشهد أبواه على خشبة التعذيب الذى أرادت قريش أن تطفئ به نور الله ، وحمل « عمار » مع أبويه حظه الرهيب من العذاب . كما تلقّى معهما حظه من البشرى الرائعة التى زفّها إليهم الرسول حين ناداهم وهم يُعذَّبون .

« صبراً آل ياسر »

(١) راجع « رجال حول الرسول » للمؤلف .

« فإن موعدكم الجنّة »

لقد اختلف « عمار » مع « الخليفة » حول بعض القضايا ، ولعلّه عالج الخلاف بطريقة أزعجت الخليفة . . ولا سيما فى أواخر عهد « عثمان » حيث كان بعض الولاة الأمويين قد أسرفوا فى قسوتهم على معارضيهم ، غير مفرِّقين بين صحابى جليل يجهر بالحق لوجه الحق ، وبين مُغْرِضٍ دخيل ، يريدها فتنة عمياء . .

ولقد كان من الممكن أن يظل الخلاف بين الخليفة وعمار محكوماً بحقوق الصحبة الغالية التى جمعت بينهما فى أيام العسرة وأيام الانتصار . . بل لقد بقى كذلك فعلا برغم المضاعفات التى انتابته بفعل الغليان الذى كانت الأنفس تمور به مَوْراً ، والذى كانت الأحداث والمؤامرات تزيده كل يوم اشتعالا .

ولقد رأينا الخليفة وهو يختار من بين خيار الصحابة مَن سيُشكِّلون لجنة تَقَصِّى الحقائق . . رأيناه لا يَنسى « عماراً » . . بل يختاره برغم معارضته له . . ويُرْسله إلى مصر .

ولما عاد مبعوثو الخليفة إلا عماراً الذى طال مكثه بمصر ، وتصادف أن كان بها فى ذلك الوقت « عبد الله بن سبأ » ، وجد الواشون فرصتهم ليوغروا صدر الخليفة على عمار ، زاعمين أنه كان يجتمع بابن سبأ ، ويُصغى إليه.

ولقيت هذه الوشاية مع غيرها دوراً فى تصعيد الخلاف بين الخليفة وعمار . . على أن واقعة الاعتداء على « عمار » كانت أقسى مظاهر هـذا الخلاف ، فهل اشترك الخليفة فى هـذا الاعتداء كما تزعم بعض الروايات . . ؟

إن « الإمام الطَّبَرِىّ » ينفى ذلك ويدحَضُه ، ويسوق لنا النّبأ على لسان الخليفة نفسه عند ما عوتِبَ فى هذا الاعتداء الذى اقترفه بعض موظفى ديوان الخلافة .

قال الخليفة :

« جاء عمار ، وسعد بن أبى وقاص إلى المسجد ، وأرسلا إلىَّ : أن ائتنا ، فإنا نريد أن نُذاكرك فى أشياء فعلتَها . .

« فأرسلتُ إليهما : إنى عنكما اليوم مشغول فعودَا إلىَّ فى يوم آخر . .

« فانصرف سعد ، وأبىَ عمار أن ينصرف ، فأعَدْتُ إليه الرسول فأبى . . ثم أعدتُه فأبىَ . . فتناوله رسولى بالأذى بغير أمرى .

« ووالله ما أمرْته ، ولا رضيتُ بضربه ، وهـذه يدى لعمار ، فليَقْتَصَّ منى ما شاء » . . ! !

وكما رأينا « أبا ذَرٍّ » من قبل ، يرفض دعوة متمردى الكوفة ليقود ثورة ضد الخليفة . . نرى الآن لعمار موقفاً مماثلاً . . فعند ما حاصر المتمردون المسلحون دار الخليفة ومنعوا عنه الماء ، غضب « عمار » وصاح فيهم :

« يا سبحان الله . . أتمنعون الماء عمَّن اشترى بئر رُومة ، ووهبها المسلمين » . . ؟ ؟

ثم سارع إلى « الإمام على » وأنبأه النبأ ، واقترح عليه أن يحمل بنفسه قربة المـاء إلى دار الخليفة ، فلعلّ الثوار لا يجرأون على اعتراض سبيله . .

إن هذا الموقف بدوْره ، يعطينا الدليل على أن الخلاف بين الخليفة وذلك النفَر الكريم من الصحابة ، ما كان لِيطغَى على جلال الصُّحْبة التى جمعتهم فى الله إخواناً . .

* * *

على أن الخلاف الذى شابَهُ كثير من الجفوة ، ورأينا الخليفة يلجأ فيه – على غير عادته – إلى إجراء عنيف – كان الخلافَ الذى شَجر بينه وبين « عبد الله بن مسعود » و « عبد الله »(١) صحابى رائع فى تضحياته ، واستبسالَه ، وفى صحبتـه لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد تفاقَم الخِلاف بين الخليفة وبينه ، حتى قطع الخليفة عنه راتبه من بيت المال . . وعلى الرغم من أن إجراء كهذا لا يتّسِقُ بحال مع طيبة قلب الخليفة ، وسَماحة نفسه ، إلا أنه فيما أفْضَى إليه من مواقف ، لم يعدم هذه الطيبة ، وهذه السَماحة . .

ذلك أن الخليفة لا يكاد يعلم بمرض « ابن مسعود » – ذلك المرض الذى لقى فيه ربه ، حتى يَغشَى ضميره ندمٌ عظيم . . ويخرج إلى دار « عبد الله » متوكئاً على شيخوخته المجْهدَة الوهْنانة . . ثم يمعن فى الاعتذار لابن مسعود ، ويرجوه فى إلحاح أن يغفر له ما كان منه . . ثم يذهب

(١) راجع « رجال حول الرسول » للمؤلف .

إلى دار « أم حبيبة » رضى الله عنها ويرجوها أن تشفع له عند « ابن مسعود » كى يصفح عنه ويغفر له .

وبعد أن مات « ابن مسعود » ودُفِن ، دُون أن يُخبروا الخليفة بذلك خرج حزيناً إلى قبره ، ووقف عليه ، ورثاه قائلا ، ودموعه تنحدر من مآقيه :

« دَفنتم والله خيرَ مَن بَقِى من أصحاب رسول الله » . . !

وكما حدَث من « أبى ذر وعمار بن يَاسِر » حين رفَضا أن يستغل المتمردون خلافهما مع الخليفة ، حدث موقف شبيه من « عبد الله ابن مسعود » . . فنى مَرض موته عادَهُ بعض أولئك ، وتهدَّدوا الخليفة فى حديثهم معه بالموت . فزجرهم « ابن مسعود » وقال :

« أمَا إنكم إن قتلتموه ، لن تُصيبوا مِثله » .

• • •

هكذا كان الخلاف بينهم مهما تضطرم مَوْجاتُه ، لا يلبث أن يقهر حِدَّته ولاؤهم للصحبة الجليلة التى أنشأها بينهم دين الله وصحبة رسوله . .

فالخليفة حين يخطئ فى حق أحدهم يعتذر . .

وهم يرفضون أن تُستغل خلافاتهم وقوداً لأطماع المتآمرين . .

ولو أن الولاة الأمويين تفوّقوا يومئذ على دواعى الغِلْظَة فى أنفسهم وفى مسلكهم ، لو فّروا على الخليفة الكثير من المتاعب . . ولكن كثيراً منهم كانوا يزيدون النار بقسوتهم ضِراماً ، لاسيما فى أواخر عهد « عثمان » ،

عندما رأوا نطاق الفتنة يتسع من حولهم وتُوشك أن تلتهمهم نارها .

وحينما كان ضغط الأحداث يضطر الخليفة لأن يتجهَّم لبعض الأصحاب ، فلأنه كان قد دخل مرحلة حَرِجة ، صار شغله الشاغل فيها المحافظة على هيبة الدولة فى أفئدة الناس . .

ولعلّه كان يرى فى تجَهُّمِهِ لنفر من زُعماء الصحابة وخيارهم زاجراً للآخرين الذين ليس لهم فى ضمير الخليفة ولا فى نفسه معشارما للصحابة من مودة واحترام . .

ولعلّه كذلك حين طلب من « الإمام على » كرم الله وجهه أن يغادر المدينة إلى مكان قريب منها ، إنما كان يهدف إلى إقرار هذا الأمر دون سواه . وإلا فما كان الخليفة يستغنى قط عن مشورة الإمام ونجدته . ولقد كان كلما حزَبَتْه الأمور يستنجد به ، ويُقاسِمُه أعباءها وأخطارَها . .

كذلك ، لابد من أن نذكر فى هذا المقام حرص الخليفة الشديد على ألا ينشب بين المسلمين قتال يكون هو سبباً له ، أو طرَفاً فيه .

ولقد مرت بنا كلمته للمغيرة بن شُعْبة حين أشار عليه بقتل المتمردين :

« . . لا والله ، لا أكون أول من يخلُفُ
الرسول فى أمّته بسفك الدماء »

فخليفة تتأجّج من حوله الفتن والمؤامرات التى تحوّلت إلى عصيان مسلح خبيثِ الأهداف ، وهو لا يريد مهما تكن العواقب أن يُواجه هذا التمرد بقوة السيف مكتفياً بالزجر والتهديد . . ومع مَن ؟ ؟ مع أناس

يَسْلُقُونه بألْسِنةٍ حداد ، ويُحرّضون على خَلْع طاعته وقتله ، ويُضمرون للإسلام كل شر وسوء .

أيُعقل أن يقف مسلكه مع هؤلاء عند حدود الزجر والتأنيب ، ثم يسمح له ضميره وخلُقه بالإساءة لصحابة أجلاَّء ، وناصحين أمَناء ، من طراز [عَلِيٍّ ، وعمار ، وأبي ذر ، وابن مسعود] . . ؟ ؟

* * *

لم يكتف المتمردون الخوارج بتلك الاتهامات الباطلة التي راحوا يشغبون بها على الخليفة ، والتي سردناها على الصفحات السالفة وفنّدناها . فراحوا يُرجفون بأن « الخليفة » يبتدع في الدين بدَعاً لم تكن على عهد رسول الله ، ولا في عهد صَاحِبَيْه .

وهذا هو المأخذ الرابع والأخير في تلك المآخذ التي نناقشها .

لقد راحوا يتصيَّدون للخليفة الراشـــد ، ما حَسِبوه بسوء تدبيرهم وخيبة فألِهم طعناً سينال من ورع الخليفة وحُسْن طاعته لله ولرسوله .

* قالوا : إن الخليفة وحَّد المصاحف كلها في مصحف واحد ، وجمع المصاحف الأخرى وأحرق أوراقها . . ولقد فصَّلْنا هذا الأمر من قبل ، وشرحْنا أسبابه ودواعيه ، ثم إنها خطوة باركها جميع الصحابة حتى الذين كانوا على خلاف مع الخليفة في مسائل أخرى . .

* وقالوا : إن الخليفة أتمَّ الصلاة بمكة في أثناء حجه ، وكان الرسول وصاحباه يَقْصُرون الصلاة .

وهذه وحدها كافية في الكشف عن حقيقة البواعث الشريرة الفاسدة التي كانت تُحرّك أولئك الخارجين ، وكيف كانوا يتصيدون الوهم

لينسجوا منه اتهاماً يحملون العامّة به على مهاجمة الخليفة والسُّلْطة .. .
فَقَصْرُ الصلاة فى السفَر رُخْصَة لا واجب ، وإذا تخطى المسلم الرخصة إلى العزيمة ، فلا تثريب عليه ولا حرج . وحتى حين نأخذ برأى الذين يُوجِبون القصر فى السفر .

فإن الإمام عليًّا كرم الله وجهه ، - فيما يُروَى عنه - قد أجاب عن هذا المأخذ المغرض ، وهو يحاور المتمردين ، فقال : [إن الخليفة كان قد تأهَّل بمكة ونوى الإقامة بها ، فأتمّ صلاته] .

* وقالوا : إن الخليفة لم يُقِم حدّ القتل على « عُبَيْدِ الله ابن عمر » . .

وكان « عبيد الله » قد انطلق فى ثورة غضبه لمقتل والده أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » فقتل طفلةً لأبى لؤلؤة . . المجوسى المجرم الذى اغتال أمير المؤمنين ، كما قتل الهرمزان بعد أن شاع نبأ تآمره مع أبى لؤلؤة . .

وصحيح أن الشريعة الإسلامية كانت توجب القصاص ، ولكن الخليفة اجتهد فى القضية اجتهاداً كان مبعثه تقديره للظروف التى دفعت ابن أمير المؤمنين عمر للثأر لأبيه ، وللإسلام . . كما أنه لم يشأ أن يجمع على آل الخطاب حُزْنين وكارثتين - الأولى : مقتل « عمر » غدراً . والثانية : قَتل ولده قصاصاً . . ثم إنه لم يطلق سراح « عبيد الله » مُهدِراً بذلك الدم الذى أراقه . . بل استبدل الدية بالقصاص ، ودفع لأولياء الدم دِيَةً سَخِيَّة ، وكبيرة . .

وقالوا : إن الخليفة ردَّ إلى المدينة الحكم بن أبى العاص ، وكان

الرسول صلى الله عليه وسلم قد نفاه منها . .

ولقد أجاب الخليفة عن هذا ، بأنــه كان قد شفع له عند رسول الله وو‌عده الرسول بالعفو عنه بعد حين . . ثم إن الخليفة لم يردَّه إلى المدينة إلا بعد أن زالت أسباب نفيه ، إذ كان قد أقلع وتاب عمَّا كان قد استحق من أجله عقوبة النفى . .

وقالوا . . ثم قالوا . . ولم يشبعوا قولا ، ولم يَعدِموا كذباً ولا بُهتاناً ، ينسجون منه خيوط مؤامرتهم الوبيلة . . منتهزين فرصة أى معارضة نزيهة يقوم بهـا صحابىٌّ ناصِحٌ أمِين ، لِيُضخِّموها بوسائلهم ، وليتوسَّلوا بها إلى باطلهم .

* * *

على أن الخليفة رضى الله عنه أمام المعارضة الشريفة التى واجه بها أصحابُه بعض قراراته ، لم يقف موقف المستعلى على الرأى ، ولا المُسْتَنْكِفِ عن الحق ، بل وقف على ملأ من المسلمين فى يوم الجمعة ، يعترف بالأخطاء التى وقعت ، ويرفع ضراعَتَه إلى الله مستغفراً وتائباً . . باكياً ومُبْكِياً جميع الذين كانوا هناك يستمعون إليه ويُنصتون . .

* * *

وأمام موقفه هذا ، تبددت الموجة الأولى من الهجوم على المدينة . ذلك الهجوم الذى كان المتمردون قد انطلقوا به من مصر ، حيث كان « ابن سَبأ » قابعاً ومُقيماً ، يُفرِّخ ويَبيض . . ! !